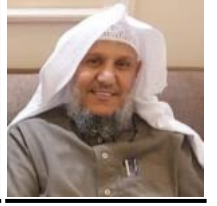


بين غُرُوبِ وَشُرُوقِ حسن مهدي قائم الريمي



الحمدُ لله مُنَشئُ الأيامِ والشهورِ، ومفني الأعوامِ والدهورِ، المتفردِ بتقدير الأقدارِ وتصريف الأمورِ، يَعْلَمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخْفِي الضُّورِ. وأشهدُ أن لا إله إلا الله الغفور الشكور. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفضل أمر وأجل مأمور. اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه، وضاعف اللهم لهم الأجور.

أما بعد....

أيام قلائل - أيها الأحبة - وتغرب شمس عام ١٤٤٣هـ وتشرق شمس عام ١٤٤٤هـ هجري.

ولأنَّكُم أن معها تُطوى صحائف أعمالنا هذه اللَّيلة أو غداً، فعمل المؤمن مستمر ما دام حيًّا، وقلمُ التَّكليف جارٍ عليه ما بقيت الرُّوح في الجسد، فلا علاقةً لنهاية عامٍ ينقضي، أو بداية عامٍ جديدٍ يطوي الصُّحف، وإنما الذي دلت عليه السُّنة أن أعمال العباد كما ذكر أهل العلم: تعرض على الله - عز وجل - على ثلاثة أنواع من العرض:

العرض الأول: العرض اليومي، في كل يوم مرتان: مرة بالليل ومرة بالنهار.

ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفئ الخفَّين، ويضع يده على عينيه، ويقول: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفُضُ الْقَسْطَ وَيَرْمَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ).

العرض الثاني: العرض الأسبوعي، ويقع مرتين أيضاً: يوم الاثنين ويوم الخميس. ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تُعْرَضُ أَعْمَالُ النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُعْرَفُ لِكُلِّ عَبْدٍ مَوْمِنٍ إِلَّا عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ: ائْتَرَكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَفِيئَا).

العرض الثالث: العرض السنوي، ويقع مرة واحدة في شهر شعبان. روى النسائي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ أَرَكَ تَصُومَ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ؟! قَالَ: (ذَلِكَ شَهْرٌ يَعْمَلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تَرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاجِبُ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ) حسنه الألباني في صحيح الجامع. وأما ما يعتقد البعض أن في آخر العام تطوى صحائف الأعمال، فهذا لا أصل له، والذي ثبت في السنة أن العرض السنوي هو في شهر شعبان كما سبق.

وخير ما نختم به العام - أيها الأحبة - ونستقبل به العام الذي يليه وقفة اعتبار وادِّكار ومحاسبة، ننظر إلى هذه الشمس تطلع كل يوم من مشرقها ثم تغرب في نهايته، وننظر إلى الهلال يولد صغيراً ثم يتناقص حتى يتوارى عن الأنظار، وننظر إلى العام الجديد كيف تبدو نهايته بعيدة، فما تلبث الشهور والأيام أن تنقضي سراعاً حتى تصل إلى النهاية.

هذه حقيقة لاتخفى علينا وإنما تحجبنا عنها حُجُب الغفلة وصوارف الإعراض والاعتراض وطول الأمل.

مَضَتْ الشُّهُورُ وَقَارَبَتْ فِي سَبِيلِهَا
سَيْرًا حَتِيئًا بَعْدَهَا أَعْوَامٌ

مَرَّتْ مُرُورَ الطَّيْفِ عَيْرَ مَقْبِرٍ
وَكَانَهَا فِي سُرْعَةِ أَيَّامٍ

ومن عرف حق الأيام، فقد أدرك قيمة الحياة، فالوقت هو الحياة، والليل والنهار مراحل نقطتها مرحلة مرحلة، حتى تنتهي بنا المهلة، ونلقى الله -تعالى- وحينما ينقضي عام من حياتنا، ويدخل عام جديد، فإنه لابد من وقفة محاسبة صادقة مع النفس. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨].

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى -: "وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتعميمه، وإتقانه"

وقال صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى). [رواه الترمذي وابن ماجه، وضعفه الألباني]. ومعنى دان نفسه: أي حاسبها.

والمؤمن الذي يعلم أن أيامه معدودة وأنفاسه محسوبة؛ تكون له وقفات مع نفسه يطلع على عيوبها، ويحاسبها على جميع حركاتها، وسكناتها، وخَطراتها، وخطواتها، وأعمالها، وأفعالها، فيكبح جماحها، ويصحح ما اعوجَّج من سلوكها، ويتدارك ذلك بالتوبة

والاستغفار، والحسنات الماحية للسيئات.

فمن حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحاسب في الآخرة، خَفَّ في القيامة حسابها، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبته ومآله، وفن لم يحاسب نفسه دامت حسرتة، وطالت في عرصات القيامة وقفته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئته.

يَأْتِفُسُ كُفِّي عَنِ الْعُضَيَّانِ وَائْتَسِي
فِعْلًا جَمِيلًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمَنِي

يَأْتِفُسُ وَيُحَكُّ تُوْبِي وَاعْقَلِي حَسَنًا
عَسَى تُجَارِيَن بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْحَسَنِ

ورحم الله السلف الصالح ورضي الله عنهم ؛ فقد ضربوا لنا أروع الأمثلة في محاسبة أنفسهم وتقويمها، وما ذاك إلا لعلمهم بمكانة المحاسبة ومنزلتها، ها هو ابن الخطاب - رضي الله عنه - يفتد حائطًا يكلم نفسه قائلاً: "عمر، أمير المؤمنين، بخ بخ، والله بُئِيَ الخُطَابُ لتتقين الله أو ليعذبنك".

وقال ميمون بن مهران: "لا يكون الرُّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مَحَاسِبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ، وَحَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَلْبَسُهُ وَمَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ"، ونقل عن ابن الصِّقَّة أَنَّهُ جَلَسَ يَوْمًا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فَعَدَّ عَمْرَهُ فِإِذَا هُوَ ابْنُ سَتِّينَ سَنَةٍ، فَحَسَبَ أَيَّامَهَا فِإِذَا هِيَ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةَ يَوْمٍ، فَصَرَخَ وَقَالَ: يَا وَيْلَتِي! أَلْقَى اللَّهُ بِوَاحِدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ.

وَالنَّفْسُ تُعَلِّمُ أُنَى لَا أُضَادِقُهَا
وَلَسْتُ أَرشُدُ إِلَّا جِبْنَ أَعْصِيهَا

هذه صور مشرقة، ولمحات مضيئة، ونفحات إيمانية تدلُّ على اهتمام سلفنا الصالح بمحاسبة أنفسهم، تأمل كيف كانوا يعتبرون بمرور اللحظات والدقائق والأيام والليالي، وكانوا يحاسبون أنفسهم في جميع أوقاتهم؛ كانوا ينظرون للحياة أنها دقائق وثمان وليست أعواماً كما نُنظر إليها نحن! كانوا يعلمون أنهم في سباق؛ وأن السباق لابد فيه من فائز وخاسر، وأن جائزة السباق إما سعادة الأبد وإما شقاء الأبد، وياله من فوز! وياله من خسارة!

يقول ابن القيم رحمه الله: "ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدَّهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل بين التفريط والأمن".

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي".

وقال مالك بن دينار: "رحم الله عبداً قال لنفسه: ألسنت صاحبة كذا؟ ألسنت صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها ثم أزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائداً"

وقال الحسن: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همته"

أَقْبِلْ عَلَيَّ النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا
فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانٌ.

وقبل أن أختتم مقالي - أيها الأحبة - أحب أن أنبه على بعض فوائد محاسبة النفس، منها:

- ١- أنها تكشف للمسلم عيوب نفسه ومساوئها.
- ٢- أنها تجعل المسلم وقفاً عند حدود الله.
- ٣- أنها تُعزِّف المسلم على حق الله تعالى، وعظيم فضله عليه.
- ٤- أنها تعينه على التوبة، والندم، والرجوع، وتدارك ما فات من الأعمال الصالحة.
- ٥- أنها تجعله يزهد في الدنيا، ويمقت النفس، ويخلصها من الكبر والعجب والغرور.
- ٦- أنها تترك النفس، وتطهرها وتصلحها، وتلزمها أمر الله.
- ٧- أنها تربي النفس على الشعور بالمسؤولية.
- ٨- أنها تحقق السعادة في الدارين ونيل رضا الله تعالى ومحبه.

فحريٌّ بنا أن نستلهم العبر والعظات والدروس من تصرف الليالي والأيام والأعمار، ونعلم بأن هذه الدنيا كالحَيَال، لابد أن يطرأ عليها الزوال، وإلى الله مرجعنا، والقبر يضمنا، ويوم القيامة يجمعنا، فهنيئاً لمن قدَّم في هذه الدنيا ليوم المعاد ما ينفعه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولیکن كُلُّ وَاحِدٍ مِّنَّا رَقِيْبًا عَلَيَّ نَفْسِي، يُحَاسِبُهَا وَيُقِيمُهَا، وَلَا يَشْغُ لِيَكُونَ رَقْمًا عَلَيَّ كَوَكْبِ الْأَرْضِ فَقَطْ، بَلْ يَبْحَثُ كَيْفَ يَكُونُ اسْمًا ذَا بَصْمَةٍ تَبْقَى فِي ذَاكِرَةِ الْأَيَّامِ، وَنَسْمَةً تَهَبُّ عَلَيَّ الْبَشَرِيَّةَ بِالْخَصْبِ وَالرِّخَاءِ.

مَضَى أَمْسُكَ الْفَاضِي شَهِيدًا مُعَدَّلًا
وَأَعْقَبَهُ يَوْمٌ عَلَيَّكَ جَدِيدٌ

فَإِنْ كُنْتُ بِالْأَفْسِ اتُّرْمِتُ إِسَاءَةً

فَتَنِّ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدٌ

وَلَا تُرْجِ فِعْلَ الْخَيْرِ يَوْمًا
إِلَى غَدٍ لَّغَلَّ غَدًا يَا تَبِي وَأَنْتَ فَقِيدٌ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.